

١٦ - رحلة الحج

● الخطبة الأولى :

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون :

نحن اليوم فى الثامن من ذى الحجة .. يوم التروية، اليوم الذى يبدأ فيه الحجاج رحلتهم إلى منى، ثم إلى عرفات، ثم من عرفات إلى المزدلفة، إلى منى لرمى جمرة العقبة، إلى الكعبة للطواف ببيت الله الحرام طواف الإفاضة.

نحن فى أيام الحج،، والحج هو الركن الخامس - من أركان الإسلام - الذى تمّ الله به الشعائر والفرائض العملية، التى جعلها أركان هذا الإسلام.

﴿ حَجُّ الْبَيْتِ مِنْ اسْتِطَاعٍ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ (١) فريضة على كل مسلم - ومسلمة - قدر على أداء الحج بدنياً وقدر على أداء الحج مالياً، ملك الزاد والراحلة كما روى فى الحديث (٢) . ومعنى (ملك الزاد والراحلة) : أن يملك نفقات الطريق إلى بيت الله، ونفقات الإقامة هناك، كلٌّ على ما يتيق بحاله .

ونحمد الله فى هذا العصر أننا لا نشكو من قلة الحجاج، بل ربما شكونا من كثرة الحجاج وازدحام الموسم ممن يحججون الحجة السابعة والعاشرة والعشرين والأربعين .

الحمد لله، البيت الحرام مزدحم بالطائفين، وطالبو الحج كلّ عام كثيرون وكثيرون، وأكثرهم لا يخرج فى القرعة، لا تُتاح له الفرصة . ولذلك ليس حديثنا

(١) قال تعالى: ﴿ .. وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتِطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا .. ﴾

[آل عمران : ٩٧] .

(٢) الذى رواه ابن ماجة بإسناد حسن، عن ابن عمر رضى الله عنهما: أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: من الحاج؟ قال: «الشعبُ التفلُّ». قال: فأى الحج أفضل؟ قال: «العحُّ والتَّحُّ». قال: وما السبيل؟ قال: «الزاد والراحلة». وانظر (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ١ / ٣٤٨ برقم ٦٠١) .

عن هذه الفريضة ولا عن المقصرين فيها، إنما حديثنا عن أسرار هذا الحج، وعن الحكم التي توخاها هذا الدين من وراء هذه الشعيرة العظيمة.

إن الحج تذكير للناس بأبى الأنبياء إبراهيم - عليه السلام - الذى بنى البيت الحرام الذى يحجج إليه الناس. هذا البيت الذى فرض الله على كل مسلم أن يتوجه إليه فى اليوم خمس مرات إن اقتصر على الفرائض، يولى وجهه شطر المسجد الحرام: ﴿وَمَنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ...﴾ [البقرة: ١٥٠].

هذا البيت بناه إبراهيم وابنه إسماعيل: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٧]. أول بيت وضع فى الأرض وأسس لعبادة الله وحده.

الكعبة: البيت الحرام، فرض علينا أن نتوجه إليه فى صلواتنا، فهو قبلة المسلمين، وأن نظوف به فى العمر مرة واحدة فى هذه الفريضة العظيمة. نظوف بالبيت ونؤدى المناسك حول البيت وبالقرب من البيت.

الحج شحنة روحية هائلة :

هذا الحج جعله الله سبحانه وتعالى شعيرة متميزة، فيه شحنة روحية وعاطفية ووجدانية للإنسان المسلم يذهب إلى تلك الأرض محرماً. ما معنى (محرماً)؟ أى ناوياً للحج إلى بيت الله، متجرداً - إن كان رجلاً - من ثيابه العادية، الثياب التى فيها الصنعة وفيها تزويق، يلبس ثياباً فطرية.. ثياباً طبيعية، ليس فيها صنعة الخياط، ليس فيها تزويق الناس، أشبه ما تكون بأكفان الموتى، بما يكفن به المؤمنون من الثياب البيض.

بعض الفلاسفة دعا الناس أن يتخلوا أحياناً عن الحياة المدنية المصطنعة الملققة، وأن يعودوا ما بين الحين والحين إلى الطبيعة، ليعيشوا بين أحضانها، ويتجردوا من القيود التى قيدوا بها أنفسهم.

هذه عودة إلى الطبيعة.. إلى الفطرة.

يحرم الحاج ويذهب إلى تلك الأرض المقدسة، تهبّ عليه الذكريات الإبراهيمية من بعيد، والذكريات المحمدية من قريب .

إيحاء هذه الشعائر: إن قوة الجماعة الإسلامية ووحدها، وتجردها من زخارف الدنيا، ونداءاتها لله: (لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك) لها أثرها في نفسية المسلم وفي تحريكه من داخله .

هذه المعاني تهزّ المسلم من أعماقه هزّاً، وتعيده كأنما هو مخلوق جديد، كأنما وُلد من جديد . فيعود أظهر قلباً، وأصدق عزماً على الطاعة، وأكثر ندماً على المعصية، ولذلك سرعان ما نجد الإنسان بعد الحج قد تغير وأصبح إنساناً آخر، وصدق رسول الله ﷺ حين قال: « من حجّ، فلم يرفث، ولم يفسق، رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه »^(١)، لقد وُلد ميلاداً جديداً .

الحج توسيع لأفق المسلم :

الحج توسيع لأفق المسلم، المسلم الذى عاش فى وطنه، أو فى قريته لا يخرج منها، ولا يعرف غيرها، ولا يسمع ببلاد سواها . الحج يرفع مستواه، يصله بالعالم الإسلامى، يلقي مسلمين من أنحاء الأرض، من أجناس شتى، وأوطان شتى، ولغات شتى، وطبقات شتى، فيتسع أفقه، ويعرف روعة هذا الإسلام وعالميته، وسعة أفقه، وأنّ له إخواناً مسلمين فى أنحاء العالم .

فهذه بعض المنافع اللى يشهد بها ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ * ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات .. ﴿ [الحج: ٢٧، ٢٨]، منافع بعضها مادية .. تجارية، وقد كان بعض الصحابة يتخرجون من التجارة فى الموسم، ويخافون أن يكون هذا خدشاً فى نيتهم وإخلاصهم فى هذه العبادة، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ

(١) رواه البخارى، ومسلم، والنسائى، وابن ماجه، والترمذى إلا إنه قال: « غفر له ما تقدم من ذنبه »، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ١ / ٣٤١ برقم ٥٨١) .

تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ .. ﴿ [البقرة: ١٩٨] لا حرج في أن تتجر في الموسم وتبتغي فضل الله ورزق الله، ما دام هدفك الأساسى هو أداء هذه الشعيرة .

الحج تدريب عملى على ممارسة مثل الإسلام :

والحج كذلك تدريب عملى على المبادئ العظيمة التى جاء بها الإسلام :

١ - تدريب على ركوب المشقة :

الإنسان يذهب إلى الحج، فيترك وطنه، ويهجر أهله وأحبائه، ويهاجر إلى الله عز وجل، هجرة لا يبتغى بها إلا وجه الله تعالى . يعانى من السفر ووعثاء السفر، والسفر قطعة من العذاب أياً كانت وسيلة السفر . سواءً سافر بالبرّ أم بالبحر أم بالجو، السفر قطعة من العذاب . الحج قديماً كان بالدواب، ولكنه لم يكن يحتاج إلى تأشيرات، ولا إجراءات كسفر اليوم .

ولم يشأ الله أن يجعل هذا الحج إلى مدينة من المدن الجميلة : لبنان أو سويسرا، وإتّماً جعله إلى واد غير ذى زرع . وشاء الله أن يربطه بالأشهر القمرية ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ .. ﴾ [البقرة: ١٩٧] : شوال وذو القعدة وذو الحجة، وهذه أشهر تتعاور على فصول السنة، فأحياناً يأتى الحج فى الصيف، وأحياناً فى الربيع، وأحياناً فى الخريف، وأحياناً فى الشتاء، مثل الصيام أيضاً، ليعتاد المسلم أداء شعائره فى كلّ فصول العام .

شاء القدر أن يحمّل المسلم ركوب المشقات، وأن ينزل فى هذا الوادى الضيق، وادى (منى)، لينصب الخيام، ويعيش حياة أشبه بحياة الكشّافين والجوّالين، ينام على الحصى .. على الحصباء، ما استطاع أن يفعل ذلك .

هذا هو الحج .

الحج رحلة مشقة يبذل فيها المسلم من نفسه ومن ماله . العبادات الإسلامية بعضها عبادات بدنية كالصلاة والصيام، وبعضها عبادات مالية كالزكاة، وبعضها يجمع بين البدن والمال مثل الحج، فهو عبادة بدنية مالية، يتحمّل الإنسان فيها المشقة : يبذل من بدنه، ويبذل من ماله .

وينبغي للمسلم أن يتحرى المال الحلال . أن يحج من مال طيباً، فالحج المبرور هو الذى يكون بالمال الطيب، وبالنية الخالصة، وألا يكون فيه رفث ولا فسوق ولا جدال « .. والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » (١).

٢ - تدريب على المساواة :

فى الحج يتدرب المسلم على تحمّل المكاره والمشقات، ويتدرب المسلم على معنى المساواة . الإسلام جاء وأعلن فى الناس أنهم سواسية كأسنان المشط، وجاءت عبادات الإسلام تؤكد هذا مثل صلاة الجماعة، يقف كل إنسان بجوار من عن يمينه وعن شماله، الخفير بجوار الوزير، والصغير بجوار الكبير، والغنى بجوار الفقير .

ولكن فى الصلاة يظل الناس متميزين بملابسهم وشاراتهم، هذا يلبس جلباباً، وهذا يلبس بدلةً، وهذا يلبس جبّةً، وهذا يلبس ثوباً غالياً، وهذا يلبس ثوباً رخيصاً، وهذا يضع عمامة على رأسه، وهذا يضع (غتره)، ولكن فى الحج تجرّد الناس من هذه الشارات المميزة كلّها، ولبسوا هذه الثياب التى هى أشبه بالأكفان .

بعض الناس يظنّ أنّ المنوع هو (المخيط) فقط أى الذى دخلته الخياطة، لا، المقصود الصنعة، المقصود هو الثياب المفصّلة على قدر الجسد، ولهذا لم استرح للثياب التى تصنع وفيها (الكباسيل)، ويلبس الإنسان شيئاً أشبه (بالتنورة)، لا، ليس هذا هو المقصود . المقصود أن يلبس الإنسان الثياب الطبيعىّة، وأن يتدرب على معنى المساواة، هذا هو ما يريده الإسلام .

يقف الجميع فى عرصة عرفات .. فى ساحة عرفات، وقد تساوا أمام الله عزّ وجلّ، كلّهم سواسية، ولذلك قال النّبى ﷺ فى أواسط أيام التشريق: « يا أيّها

(١) رواه مالك، والبخارى، ومسلم، والترمذى، والنسائى، وابن ماجه، عن أبى هريرة رضى الله عنه: وأوّلّه: « العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما .. » (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٣٤٢/١ يرقم ٥٨٢).

النَّاسَ إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجْمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدٍ، وَلَا لِأَسْوَدٍ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى...»^(١).

الحج تدريب على المساواة الحقيقية .

٣ - تدريب على الوحدة :

وهو تدريب على الوحدة أيضا، هذه أمة واحدة، آمنت برب واحد، واتبعت رسولا واحداً، وأدت شعائر واحدة، ولها هدف واحد، ولها منهج واحد . وفي الحج تتجلى هذه الوحدة : وحدة المشاعر، ووحدة الشعائر، ووحدة الهدف، ووحدة السلوك، ووحدة العمل، فالكل يؤدون أعمالاً واحدة، ووحدة القول والتهاتف : « لبيك اللهم لبيك .. » .

هذه الوحدة تجسد هذا المعنى الكبير: ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً .. ﴾^(٢) . ينبغي أن تقف الأمة كالبنيان المرصوص يشد بعضها بعضاً، وخصوصاً إذا حلت بساحتها الشدائد وأخاطت بها المحن والكربات، يجب أن تتجسد وحدتها حينئذ .

الحج يجسد هذه الوحدة وهذا المعنى الكبير .

٤ - تجسيد لمعنى السلام :

يجسد الحج كذلك معنى آخر، ويدرب المسلمين عليه، إنه معنى (السلام) .

يتهمون المسلمين بأنهم دعاة حرب، والمسلمون دعاة سلام . ورحلة الحج تدريب على معنى السلام، هي رحلة سلام إلى أرض السلام في زمن السلام .

(١) قطعة من خطبة النبي ﷺ أوسط أيام التشريق، وقد رواها أحمد في مسنده من حديث أبي نضرة . انظر (الفتح الرباني مع شرحه بلوغ الأمانى : ١٢ / ٢٢٦ برقم ٤٢٧) . وأوردها الهيثمي في (مجمع الزوائد : ٣ / ٥٨٦ برقم ٥٦٢٢) ثم قال : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح .
(٢) الأنبياء : ٩٢ . وتتمتها : ﴿ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ .

أرض الحج أرض السلام: الأرض المقدّسة .. الكعبة .. البيت الحرام، الذي من دخله كان آمناً، وقال فيه ابن الخطّاب - رضي الله عنه - : (لو رأيت فيه قاتل أبي ما مسسته بأذى)، ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ۗ ﴾ [البقرة: ١٢٥] ، أرض محرّمة لا يُصَادُ صَيْدُهَا، وَلَا يُقَطَّعُ حَشِيشُهَا، حتى صيد البر لا يمس ولا يذبح ﴿ .. وَحَرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرَمًا ۗ ﴾ [المائدة: ٩٦] .

زمن الحج زمن السلام: لأنّ معظم أعمال الحج في ذى القعدة وذى الحجة، وهما شهران محرّمان ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْلُوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ ۗ ﴾ [المائدة: ٢] . جعل الله الأشهر الحرم هدنة إجباريّة للمسلمين، يوقف فيها القتال وتُحَقَّن فيها الدماء، ويصان فيها السلام . هكذا يعلم الله تعالى المسلمين في هذه الرحلة العظيمة: معنى السلام، وأعمال السلام .

٥ - الحج مؤتمر عالمي :

والحج مؤتمر رباني للأمة الإسلاميّة، تجتمع فيه الأمة الإسلاميّة من مشارق الأرض ومغاربها، مؤتمر لم يدع إليه ملك ولا أمير ولا رئيس، إنّما دعا إليه ربّ العالمين عزّ وجلّ، دعا الناس إلى هذا المؤتمر، ليلتقوا على كلمة سواء ، على كلمة الإسلام، فينبغي للمسلمين أن يستفيدوا من هذا المؤتمر السنوي العظيم .

يلتقى كل عام نحو مليونين أو أكثر من المسلمين، فهل يستفيدون؟ هل يشهدون منافع لهم؟ هل يتدارسون مشكلاتهم؟ هل يتعاون أهل الرأي فيهم على ما يجب عمله؟ أم أنّ الناس يذهبون ويجيئون ولم يستفيدوا من هذا المؤتمر العظيم؟

إنّ أعداء الإسلام هم الذين يدركون خطر هذا المؤتمر، حتى إنّ أحدهم في مطالع هذا القرن - وهو من المبشرين العتاة - كتب تقريراً عن فشل التنصير في مصر وأسبابه قال فيه: سيظلّ الإسلام في مصر صخرة عاتية تتحطم عليها

محاولات التبشير المسيحي، مادام للإسلام هذه الدعائم الأربع: القرآن.. والأزهر.. واجتماع الجمعة الأسبوعي.. ومؤتمر الحج السنوي^(١)!

هكذا قال هذا الرجل الذي يرصد الحياة الإسلامية: ما دام المصحف يقرأ ويرتل صباح مساء، وما دام حفاظه وقرأؤه بالملايين، وما دام الأزهر والعلماء موجودين يقولون كلمة الحق، ويعلمون الناس الدين، ويدعون إلى الله، وما دامت خطبة الجمعة الأسبوعية قائمة، يلتقى الناس عليها ويتعلمون دينهم، ويتذكرون ما نسوه، ويتنبهون لما غفلوا عنه، وما دام مؤتمر الحج السنوي يجمع المسلمين من أقاصى الأرض، يجمع شتاتهم، ويحيى مواتهم، ويذكّرهم بربهم ودينهم، ما دامت هذه الأربع قائمة فلن يستطيع التبشير أن ينجح فى مهمته.

هذا ما ينبغى أن نستفيد منه نحن المسلمين من هذا المؤتمر العظيم، الذى يعقد سنوياً، وما يستطيع أحد أن يمنعه، ولا يستطيع أحد أن يتدخل فى عقد هذا المؤتمر الربانى الإنسانى العالمى العظيم.

يا أيها الإخوة :

إنّ النبى ﷺ عرف قيمة هذا المؤتمر، وكان يعلن فيه القرارات العظيمة المهمة. فى أول سنة حجّ فيها أبو بكر - رضى الله عنه - بالمسلمين، أعلن النبى ﷺ فى ذلك الحج مبادئ مهمة: أعلن إنهاء العهد بينه وبين المشركين، وأعلن أنّه لا يحج بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان.

وفى السنة التالية حجّ النبى ﷺ بنفسه حجته الوحيدة، حجة الوداع وحجة البلاغ، فأعلن على الناس مبادئ الإسلام العالمية الإنسانية، وقال: «... إنّ دماءكم وأموالكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا، فى شهركم هذا، فى

(١) ولذلك باءت محاولاتهم - والحمد لله - بالاخفاق والفشل، رغم المدارس التى أنشأوها، والمعاهد التى أسسوها، والأموال التى بذلوها، والكتيب التى وزعوها، والمجلات التى نشرها بين المسلمين، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصِدُوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيَنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦].

بلدكم هذا...»^(١)، وأعلن بيانه العظيم على الناس قائلاً: «ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد» .

نحن علينا أن نستفيد من هذا الحج، علينا أن نستفيد من حجنا نحن المسلمين، ونعلن على الدنيا كلها أن هذه الأمة لا زالت أمة متمسكة بالإيمان بربها.. بدينها.. بقرآنها.. بمحمدها.. برسولها، ولن تتخلى عن هذا الدين، وأنها تقف صفاً واحداً أمام كل عدوان على مقدساتها، وأنها لن تفرط في مسجد الأقصى الذي ربطه القرآن بالمسجد الحرام في سورة معروفة، جعل هذا مبتدأ الإسراء وجعل الآخر منتهى الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا..﴾ [الإسراء: ١].

لن تفرط الأمة في المسجد الأقصى، كما لم تفرط في المسجد الحرام. علينا أن نعلن هذا في هذا الموسم وفي كل موسم، حتى يكون حجنا مبروراً، وذنبنا مغفوراً، وسعينا مشكوراً، وعملنا مبروراً، إن شاء الله.

اللهم اغفر لنا ما مضى، وأصلح لنا ما بقى، ﴿.. رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

ادعوا الله يستجب لكم.

● الخطبة الثانية :

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون :

لا زال العدوان الإسرائيلي الغاشم قائماً متبجحاً، لا يستحي من أحد، يتحدى العرب كل العرب، ويتحدى المسلمين كل المسلمين، ويتحدى العالم كل العالم، لأنه يعتز بترسانته النووية التي يملكها، ولا يملك أحد في المنطقة شيئاً

(١) قطعة من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه في وصف حجة النبي ﷺ، الذى رواه مسلم فى صحيحه، انظر (صحيح مسلم بشرح النووي: ١٨٢/٨) ط . دار الفكر.

من ذلك، ويعتزّ بأوليائه وحلفائه من الأمريكان، والذي يؤيدونه في كل ما فعل، ويصدّقونه في كل ما قال، ويسندونه في كلّ عدوان يقوم به. لا زال هذا العدوان الإسرائيلي على لبنان الشقيق قائماً، شامخاً برأسه، ثانياً لعطفه، مغترّاً بنفسه.

لا زال هذا العدوان يأكل من كرومنا عناقيد العنب، ويطعمنا نحن من ترسانته (عناقيد الغضب).^(١) الغضب علينا، الغضب على لبنان، الغضب على حزب الله الذي يدافع عن وطنه.

هل كان الدفاع عن الوطن خطأً أو خطيئة؟ هل كان الدفاع عن الأوطان المحتلة جريمة؟ في أيّ عُرْف؟ في أيّ فلسفة؟ في أيّ دين؟ في أيّ مذهب؟ في أيّ قانون؟ دلونا على ذلك.

أليس من حق الوطن المحتل أن يجند أبناءه للدفاع عنه أمام العدو المغتصب؟

لم يُجرم حزب الله حينما أطلق صواريخ الكاتيوشا على شمال إسرائيل، إنّ له الحقّ كلّ الحقّ في أن يدافع عن نفسه، وإسرائيل هي المتحرّشة دائماً، وهي البادئة دائماً.

وأحبّ أن أقول لكم أيّها الإخوة: المسألة ليست حزب الله، وليست صواريخ الكاتيوشا، هذه كلّها تعلات أشبه بما يقال: أنت الذي عكّرت علىّ الماء. إنه تحكّم الذئب في الحمل، إنّ إسرائيل تريد أن تعلّمنا إذا كنّا جهلنا، وتنبهنا إذا كنّا غفلنا، وأن تذكّرنا إذا كنّا نسينا: أنّها سيدة المنطقة، وأنّها هي المتحكّمة في الرقاب، تأمر وتنهى، وتحلّ وتحرمّ، وتفعل ما تشاء، وتحكّم ما تريد، لا تُسأل عمّا تفعل.

هذا ما تريده إسرائيل.

(١) العملية التي قامت بها إسرائيل ضد لبنان في قانا، وراح ضحيتها أعداد كبيرة، سمتها إسرائيل (عناقيد الغضب) وكان ذلك في ١٨/٤/١٩٩٦م (القرضاوى).

ليست المسألة (حزب الله) . المسألة: تركيع لبنان .. إذلال لبنان، وإذلال سوريا، وإذلال العرب، حتى يرضخوا لمشيئة إسرائيل، حتى يسير الجميع فى ركاب إسرائيل، حتى يقول الجميع: سمعنا وأطعنا، حتى ينحنى الجميع راکعين، ويضطأطأوا أذلاء ساجدين .

وإسرائيل تفعل ذلك شامخة، لأنها ترى العجز العربى .. والذلّ العربى .. والهوان العربى .. والتمزق العربى، بحيث لا نرى - كما قلت لكم فى الجمعة الماضية - صراخاً .. لا نرى احتجاجاً صارخاً، إنما نرى احتجاجات هامسة، والهمس ينم اليقظان والصراخ يوقظ النعسان .
هذا للأسف ما نراه .

إسرائيل متمادية فى غيها . فى عدوانها، وهذا يثبت لنا ويؤكد لنا ما قلته من قبل وكررتة، ولا زلت أقوله وأكرره وأؤكدّه: أن الإرهابى الأكبر فى هذه المنطقة ليس هو جماعة حماس وليس هو الجهاد الإسلامى، وليس هو حزب الله، فهؤلاء كلهم أبطال يدافعون عن مقدّساتهم وعن أوطانهم، الإرهابى الأكبر هو (إسرائيل) .

إسرائيل قامت منذ قامت وقبل أن تقوم - حينما كانت عصابات - على الإرهاب .

من منّا ينسى عصابات (الهاجاناة) وعصابات (الأرجون)؟ العصابات التى سفكت الدماء، ونهبت الأموال، وخرّبت الديار، وبقرت بطون النساء، وفعلت الأفاعيل، حتى فرّ الناس من بيوتهم مذعورين .

كانت هذه إسرائيل قبل أن تقوم لها دويلتها، وبعد أن قامت دويلتها أصبحت أكثر إرهاباً .

إنها (الإرهابى الأكبر) فى المنطقة .

إنّ المسألة ليست (حزب الله)، إنّها رسالة موجّهة إلى العرب .. كلّ

العرب : أن إسرائيل - بطائراتها وقواتها المسلحة - قادرة على الوصول إلى أي عاصمة عربية، لا يمنعها من ذلك مانع، ولا يصدها صاد، ولا يردها راد، ولو أرادت إسرائيل ذلك لفعلت . من يمنعها؟ أين القوة التي تردعها؟ لا نجد قوة في بلاد العرب ولا في بلاد المسلمين تملك أن تردع إسرائيل، وأن ترد لها الصاع صاعاً واحداً، أو نصف صاع، أو ربع صاع!! ولا نقول (الصاع صاعين) كما يقولون .
هذا ما نراه - أيها الإخوة - في موقفنا .

والآن يتنادون بوقف إطلاق النار؟ لماذا تسمونه (وقف إطلاق النار)؟ وهل هناك نار متبادلة من الجانبين حتى يوقف إطلاق النار؟ لماذا لا تسمونه: إيقاف العدوان؟

وهب أن العدوان قد وقف، فما هي نتيجة آثار العدوان؟ البلاد التي هُجرت ونزح أهلها، حوالى نصف مليون من الشيوخ والأطفال والنساء نزحوا هائمين على وجوههم، تاركين بيوتهم ومساكنهم، ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٩٨] ماذا تكون نتيجة وقف إطلاق النار؟ ماذا تفعلون بهؤلاء؟ ماذا تفعلون بالقرى التي هُدمت، ومحطات المياه والكهرباء التي حُطمت ومئات الملايين التي خسرتها لبنان، وهي تحاول أن تعمر أرضها التي خربتها الحروب الأهلية؟

لبنان مهدد باستمرار، كلما حاول أن يبني هدموا ما بناه، وذلك أن لبنان له طبيعة خاصة، إنه بلد يمكن أن ينافس إسرائيل - في المستقبل - في سوق الاقتصاد، التي تريد إسرائيل أن تسيطر عليها وحدها . لبنان قد يكون له شئ في سوق المنافسة، فتريد إسرائيل أن تضرب لبنان حتى لا تقوم له قائمة، ولا يطمع أن يكون له نقيب أو قطمير في تلك السوق .

إسرائيل تريد أن تنفرد بالمنطقة، تريد المنطقة ملكاً خالصاً لها، تصول فيها وتجول، وتعربد كما تشاء .
هذه هي إسرائيل .

إسرائيل كيان دخيل على المنطقة، قائم على الاغتصاب والعدوان، لا فرق في ذلك بين حزب (العمل) وحزب (الليكود)، لا فرق بين هذا وذاك.
سُئل أعرابي كان عنده حماران سيئان - اسمهما: حمارا العبادى- : أى حماريك شرّ؟ فقال: هذا وهذا! أى كلاهما شر.
كلاهما شرّ: العمل، والليكود. كما يقول الشاعر:

وليس فيهم من فتى مطيع فلعنة الله على الجميع
﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا...﴾ [الأعراف: ٣٨]، لا فرق بين هذا وذاك إطلاقاً. (بريز) سفّاح أثيم، لا يقلّ عن (رابين) ولا عن (شامير) ولا عن (بيجن)، كلّهم سفّاحون.

ينبغي أن يعلم هذا الذين وضعوا أيديهم فى أيدي (بريز) السفّاح القاتل، الذى لوثت يده دماء اللبنانيين... دماء الأطفال والنساء فى قرية (قانا)، الذين قُتلوا بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله، حتى الذين استظلّوا بعلم الأمم المتحدة ضُربوا، حتى الذين كانوا يركبون سيّارة الإسعاف ضُربوا وذُبحوا.
هذا سفّاح ينبغي لمن وضع يده فى يده، أن يستغفر الله عزّ وجلّ، ويتوب إليه، ويغسل يده سبع مرّات إحداهن بالتراب. (١).

نحن أمام سفّاحين معتدين مارسوا الإثم، واستمرّوا عليه، واستمرّأوه. وأحبّ أن أقول لهم: إنّ هذه الأمّة لن تظل كذلك، وكما يقول الشاعر:

وإذا الذئاب استنعت لك مرّة فحذار منها أن تعود ذئاباً!

لن تظلّ الأمّة تستنعت وتستضعف، سيظهر منها الأبطال الذين يأخذون

(١) قياساً على مسألة تطهير الإناء إذا ولغ فيه الكلب، فقد روى مسلم فى صحيحه وأبو داود فى سننه عن أبى هريرة رضى الله عنه: «طهور إناء أحدكم إذا ولغ فيه الكلب أن يغسله سبع مرّات، أولاهن بالتراب» وفى رواية: «إحداهن» عند البراز، وعلى صحتها فهى مطلقة يجب حملها على المقيدة. انظر (فيض القدير للمناوى: ٤/ ٢٧٢ برقم ٥٢٨٠) و(سبل السلام للصنعائى: ٣٧/١).

بثأرهم من المعتدين عليها، وإن ذلك لقريب إن شاء الله، وما ذلك على الله بعزيز،
وعندنا بشائر القرآن والسنة والتاريخ والواقع ﴿ وَيَأْتِي اللَّهُ إِلَّا أَنْ يَتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ
الْكَافِرُونَ ﴾ [التوبة: ٣٢] (١).

يا أيها الإخوة:

نحن مقبلون على العيد، وعلينا أن نستقبل هذا العيد بما ينبغى له، من
توجه إلى الله سبحانه وتعالى أن يمنَّ على المسلمين بعيد يفرحون فيه الفرح
الحقيقية، يفرحون بنصر الله: ﴿ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ
يَشَاءُ ﴾ [الروم: ٤، ٥].

علينا أن نؤدى الشعائر التى طلبها الإسلام منا، الإسلام شرع فى عيد الفطر
(صدقة الفطر) طهرة للصائم من اللغو والرفث وطعمة للمساكين، وشرع فى
عيد الأضحى (الأضحى)، تذكيراً بسنة إبراهيم، وتوسعة على النفس وعلى
الفقراء والمساكين. فالإسلام لا يريد أن تكون فرحة العيد مقصورة على الواجدين
والموسرين على حين يحرم منها المعدمون والمعسرون، لذلك شرع (صدقة الفطر)
فى عيد الفطر، وشرع (الأضحى) فى عيد الأضحى.

ويجوز للمسلم أن يضحى فى بلد آخر. إذا كان هنا مسلم من باكستان أو
بنجلادش أو من اليمن أو من مصر، وله أهل وأقارب هناك فى بلده، يستطيع أن
يوكلهم فى أن يضحوا عنه فى بلد هو أشد حاجة من هذا البلد الذى وسَّع عليه
الله تعالى.

وكذلك يستطيع المسلم أن يشتري أضحية من بلد إسلامى يوكل من
يضحى عنه هناك - فى نيجيريا .. فى السنغال .. فى بنجلادش .. فى الفلبين ..
فى البوسنة والهرسك .. فى فلسطين، فى الشيشان .. فى أى بلد من هذه البلدان
- فالمسلمون أمة واحدة، يسعى بدمتهم أديانهم، وهم يدُّ على من سواهم، وهم
جميعاً إخوة، وأوطان الإسلام يسميها الفقهاء (دار الإسلام)، فهى دار واحدة.
ولذلك أنا أستطيع أن أوكل أخى المسلم فى بلد آخر أهله أشد حاجة، وأنا

(١) وأولها: ﴿ يَرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَهِهِمْ ﴾.

أضحى هنا إن كان عندى سعة أو أكتفى بشراء اللحم أو بأخذ اللحم من جارى وقريبى ولا حرج فى ذلك أبدا .

الإسلام أجاز نقل الزكاة، مع أنّ النبى عليه الصلاة والسلام قال : « تؤخذ من أغنيائهم فتردّ على فقرائهم »^(١) ولكن الفقهاء أجازوا نقل الزكاة لاعتبارات، كأن ينقلها الإنسان إلى قرابة له، أو إلى بلد أشدّ حاجة، أو إلى بلد فيه مجاعة أو فيه كارثة، لأن المسلمين متضامنون فيما بينهم، وهذا ما نقوله بالنسبة للأضحية .

أريد أن أنبه الإخوة إلى أننا سنصلى العيد بمشيئة الله تبارك وتعالى فى (أستاذ نادى قطر الرياضى) نسأل الله أن يعيد عيلنا أمثال هذا العيد، وعلى أمتنا الكبرى، بالأمن والإيمان والسلامة والإسلام والتوفيق لما يحب ويرضى .

اللهم اجعل يومنا خيرا من أمسنا، واجعل عذنا خيرا من يومنا، وأحسن عاقبتنا فى الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة .

اللهمّ اجمع كلمة هذه الأمة على الهدى، وقلوبها على التقى ونفوسها على المحبة، وعزائمها على الجهاد فى سبيلك، ونيّاتها على عمل الخير وخير العمل .

اللهمّ ولّ أمورنا خيارنا، ولا تولّ أمورنا شرارنا، ولا تهلكنا بما فعل السفهاء منّا، ولا تسلّط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا .

اللهمّ اجعل هذا البلد آمنا مطمئناً، سخاء رخاء، وسائر بلاد المسلمين .

اللهمّ انصر إخوتنا فى فلسطين ولبنان، وانصر إخوتنا فى البوسنة والشيشان، وانصر إخوتنا فى كشمير والسودان وانصر إخواننا المجاهدين فى سبيلك حيثما كانوا، وخذ بأيدي إخوتنا المضطهدين والممتحنين ، اللهم افكك بقوتك أسرهم، واجبر برحمتك كسرهم، وتولّ بعنايتك أمرهم .

اللهم عليك بأعدائك أعداء الإسلام، اللهم أنزل عليهم بأسك الذى لا يردّ

(١) متفق عليه من حديث ابن عباس .

عن القوم المجرمين، اللهم إنا نجعلك في نحورهم ونعوذ بك من شرورهم، اللهم لا تدع لهم سبيلا على أحد من عبادك المؤمنين .

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٧] .

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠] .

ربنا اجعلنا مقيمي الصلاة ومن ذرياتنا، ربنا وتقبل دعاء .

ربنا اغفر لنا ولوالدينا وللمؤمنين يوم يقوم الحساب .

اللهم آمين، ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٥] .

* * *

١٧ - خطبة عيد الأضحى

(ألقيت بمدينة الدوحة عام ١٤١٦هـ)

الله أكبر، الله أكبر.

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات، وبفضله تنزل الخيرات والبركات، وبتوفيقه تتحقق المقاصد والغايات. الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله. الحمد لله الذى أتم علينا نعمة الإسلام، وأكمل لنا هذا الدين القيم، وجعلنا به خير أمة أخرجت للناس، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله.

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، خصنا بخير كتاب أنزل، وأكرمنا بخير نبي أرسل، وأتم علينا النعمة بأعظم منهاج شرع: منهاج الإسلام ﴿اليوم يسئ الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم وأخشون اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ [المائدة: ٣].

وأشهد أن سيدنا وإمامنا وأسوتنا وحبيبنا محمداً عبد الله ورسوله، معلّم الناس الخير، وهاذى البشرية إلى الرشد، وقائد الخلق للحق، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه الذين ﴿الذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾ [الأعراف: ١٥٧] ورضى الله عمّن دعا بدعوته، واهتدى بسنته، وجاهد جهاده إلى يوم الدين.

الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر.

أما بعد فيا أيها الإخوة المسلمون:

نحن فى يوم العيد.. عيد الأضحى، فى يوم الحج الأكبر كما سمّاه الله تبارك وتعالى وسمّاه رسوله ﷺ. فى هذا اليوم تُقضى معظم مناسك الحج:

يذهب الحجاج إلى منى ليرموا جمرة العقبة - بعد أن وقفوا بالأمس في صعيد عرفات، وبعد أن أفاضوا إلى المزدلفة، وبعدها يذهبون إلى منى ليرجموا الشيطان اللعين - ثم يحلقون أو يقصرون ويذبحون أو ينحرون، ويذهبون إلى الكعبة طائفين طواف الإفاضة ﴿ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نَدْوَرَهُمْ وَلِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ [الحج: ٢٩].

هذا يوم الحج الأكبر. في هذا اليوم يجتمع المسلمون من أنحاء العالم ممثلين من كل بلد، مليونان جاؤوا من شتى البلدان، وشتى الألوان، ومختلف الأجناس، ومختلف اللغات، ومختلف الطبقات. ولكن ذابت بينهم الفوارق، فلا يعرف أسيوى من إفريقي، ولا عربى من عجمى، ولا غنى من فقير، ولا أمير من خفير، لا أبيض ولا أسود، ولا سيد ولا مسود، ولا حاكم، ولا محكوم، الكل سواسية في هذا الموقف أمام الله تعالى .

جاء الإسلام ليوحد الأمة بعباداته: الجماعة فى الصلوات الخمس توحد أهل الحى، الجمعة توحيد أكبر، العيد توحيد أكبر لأهل البلدة، الحج توحيد المسلمين جميعاً، يجمع هؤلاء المليونين أو الأكثر من مليونين، وقد جاؤوا لله محرمين ، ملبين، ساعين، طائفين، قلوبهم خاشعة، عيونهم دامعة، أعناقهم لله خاضعة، أكفهم بالدعاء ضارعة .

من غير الإسلام يقدر أن يجمع هذه الملايين فى صعيد واحد؟! الحج يبرز قوة الإسلام كما قال النبى ﷺ لصحابته: « رحم الله امرءاً أراهم اليوم من نفسه قوة » (١) .

فى هذا الحج تتجلى قوة الأمة الإسلامية .

نحن الأمة الإسلامية نملك ما لا يملك غيرنا، ولكننا للأسف لا نوظف ما نملكه ، لا نحسن توظيف قدراتنا .

(١) أورده ابن إسحاق فى سيرته من حديث ابن عباس رضى الله عنهما فى وصف عمرة القضاء سنة سبع من الهجرة. انظر (تهذيب سيرة ابن هشام :ص ٢٣٧) ط. دار البحوث العلمية بالكويت، تحقيق عبد السلام هارون .

نحن الأمة الإسلامية نملك أكثر من ألف مليون من البشر (مليار وربع المليار أو ثلث المليار فى أنحاء العالم). نملك القوة العددية وهى نعمة من الله امتنّ بها على عباده حينما قال: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُم﴾ [الأعراف: ٨٦].
معنا قوّة العدد .

معنا قوّة المادّة . . القوّة المادية والاقتصادية . الأمة الإسلامية تملك من الثروات المذخورة والمطمورة والمنشورة ما لا يملك الآخرون . عندنا من الثروة الزراعية والثروة المعدنية والثروة المائية، ما لا يملك غيرنا .

نملك أواسط القارات، ومنابت الرسائل، ومهابط الحضارات، الأمة الإسلامية تملك ما لا يملك غيرها .

ثم تملك هذه الأمة أعظم رسالة، تملك الرسالة الخالدة رسالة الإسلام . . رسالة الوسطية . . رسالة التوازن، الرسالة التى ربطت السماء بالأرض ، ومزجت بين الروح والمادّة ، وجمعت بين الدنيا والآخرة، ووازنت بين العقل والقلب، ووقفت بين حرية الفرد ومصلحة المجتمع .
نحن المسلمين وحدنا الذين نملك هذه الرسالة .

ونملك المصادر المعصومة التى لا تتغير ولا تتبدل . نملك الوثيقة الإلهية التى لا يملكها دين من الأديان ولا أمة من الأمم . نملك الوثيقة السماوية : القرآن الكريم، الذى أنزله الله ، فبقى إلى يومنا هذا كما أنزله على رسوله محمد ﷺ نقرأه مكتوباً كما كتب فى عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه .

من غير الأمة الإسلامية يملك هذه الوثيقة الإلهية؟! نحن نملك : القوة البشرية، والقوة المادية، والقوة الروحية، ولكننا لا نوظف هذه القوى، كأنما تبرأنا منها . اليهود يقاوموننا باسم التوراة ونحن لا نقاومهم باسم القرآن، هم يتجمعون على التوراة ونحن لا نتجمع على القرآن، هم يتجمعون تحت راية اليهودية ونحن لا نتجمع تحت راية الإسلام، هم يحترمون يوم السبت ونحن لا نحترم يوم

الجمعة، هم يقولون (الهيكل) ونحن لا نقول (المسجد الأقصى).
أخرجنا الدين من المعركة، أخرجنا الإيمان من المعركة، والمعركة فى أساسها
معركة دينية. اليهود خلطوا القومية بالدين، ونحن عزلنا القومية عن الدين.
اليهود جاؤوا من أنحاء الأرض، من بلاد شتى، إلى فلسطين - التى
يسمونها: أرض الميعاد - باسم الدين.. باسم التوراة باسم التلمود.

المعركة بيننا وبين اليهود معركة دينية، وكلّ من يريد إخراج الدين من
المعركة يخون الأمة، ويحرم الأمة أمضى أسلحتها، لا يمكن أن ننتصر على
اليهود إلا بالإسلام، وبالإسلام وحده، وهذا ما يحسب له اليهود ألف حساب.
هم يريدون حرب الإسلام وإخراجه من المعركة تحت أسماء وعناوين شتى:
الإرهاب حيناً، والعنف والتطرف حيناً، والأصولية حيناً، والمقصود هو
(الإسلام)، هو تنحية الإسلام من المعركة، وإخراج الإسلام من القضية، لتبقى
قضية قومية علمانية فى نظرنا، وفى نظرهم هم تبقى قضية دينية توراتية
تلمودية.

هذا ما ينبغى أن نعلمه أيها الإخوة.

إنّ ما جرى فى المدة الأخيرة من ضرب للبنان وتهجير لأبنائه بعد معركة
(قانا) الشهيرة. نصف مليون هجروا، وقتل من قتل من الأطفال ومن النساء
ومن الشيوخ الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا، أرادت إسرائيل أن
تؤدبنا.. أن تلوح لنا بالعصا الغليظة وتقول: إذا لم تسمعوا لقولى، ولم تطيعوا
أمرى، فهذا مصيركم.

ضربت إسرائيل وقتلت وذبحت، ثم أوقفت إطلاق النار، كلّ ما فعلناه وما
لهث اللاهثون من أجله: أن يوقف إطلاق النار!!

أهذا كل ما نريد؟!!

وعدوان المعتدى، واغتصاب المعتصب، وظلم الظالم، وقتل القاتل، يذهب

بلا قصاص؟!!

جوَّعوا الشعب الفلسطيني، وحاصروا الشعب الفلسطيني، وماذا صنعنا؟
جاء من يمثلون الشعب الفلسطيني، وغيروا الميثاق الوطنى! وفى هذه
المرحلة بالذات التى ما كان ينبغى أن يفعل فيها هذا، لكنهم فعلوا هذا، وغيروا
ما كان فيه تهديد لإسرائيل وترويع لإسرائيل.

هكذا طلبت إسرائيل وهكذا يجب أن تُجاب، لا ينبغى أن يرفض لها
طلب، لا يصحّ أن نقول لها: لا، أو نقول لها: لم!!؟
هذا ما جرى على أمتنا.

إنما يجىء الحجّ ليعطى هذه الأمة (قوة).

الحجّ يذكرنا بأبى الأنبياء وأبينا (إبراهيم) - عليه السلام - الذى وضع
الكعبة، ورفع قواعدها، هو وابنه (إسماعيل): ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ
الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾
[البقرة: ١٢٧].

يربط الله هذه الأمة - وهى آخر الأمم - بأول بيت وضع فى الأرض...
وبإبراهيم بالذات؟ لأنه الذى أمره الله أن يقيم الملة الحنيفية ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ
حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥]، ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا
نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].

(إبراهيم) أقام الدين لله، حطّم الأصنام، وأبى إلا أن تكون عبادته لله،
ودعاؤه لله، وتوجهه لله وحده لا شريك له.

(إبراهيم) هو داعى التوحيد، هو رمز هذا التوحيد الذى هو روح الإسلام،
وجوهر هذا الدين، وروح هذه الأمة وحياتها كلها.
(إبراهيم) ينبغى أن ترتبط به.

(إبراهيم) الذى ضحّى بوطنه وهاجر لله، وضحّى بنفسه فألقى فى النار من
أجل توحيد الله، ولم يبال بما أصابه فى سبيل الله، هدّوه: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ

وَأَنْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ [الأنبياء: ٦٨] فما بالى إبراهيم بالتحريق ولا التهديد، ولكن الله حول النار إلى رُوح ورياحين وقال لها: ﴿..... يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَيَّ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ [الأنبياء: ٦٩].

(إبراهيم) هو الذى ضحى بولده، وفلذة كبده، وقرّة عينه، ومُهجة قلبه. هو الذى ضحى بابنه الوحيد (إسماعيل)، الذى وهبه الله له على الكبر، فتعلّق به فؤاده، وكلّما نما الولد نما حبّه فى قلبه وازداد تعلّقه به. وهنا غار الله على قلب خليله، وأراد أن يمتنحه بذبح هذا الولد، وكان ذلك فى رؤيا مناميّة، لم يكن وحيًا صريحًا ينزل به جبريل عليه، إنّما رآه فى المنام: ﴿..... يَا بَنِيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى ﴿١٠٢﴾ [الصفات: ١٠٢]، متى كان ذلك؟ حينما بلغ معه السعى، حينما شبّ عن الطوق، وأصبح يُرجى منه النفع لأبيه، فى هذه الحالة جاء الامتحان ﴿قَالَ يَا بَنِيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى ﴿١٠٢﴾ [الصفات: ١٠٢]، هنا لم يكن فى روعة موقف الوالد إلا موقف الولد، والولد سرّ أبيه (ومن يشابهه أبه فما ظالم). هنا قال إسماعيل لأبيه: ﴿..... أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ [الصفات: ١٠٢]، نفذ الأوامر الإلهية التى عندك، حتى إنّه لم يقل له: افعل بى ما تؤمر، كأنّما فنى عن نفسه، وفرغ من ذاته، بل قال له: نفذ ما تؤمر ﴿قَالَ يَا أَبَتِ أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ [الصفات: ١٠٢]، ولم يدع الشجاعة ولم يزعم البطولة، وإنّما وكل الأمر إلى الله وقال: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ [الصفات: ١٠٢].

وفعلًا صبر الوالد وصبر الولد، وسلّمًا: سلّم الوالد ولده وسلّم الولد عنقه للذبح، وأمسك الوالد بالسكّين ليذبح هنا جاء الفرج، لقد نجح إبراهيم فى الامتحان، ليس القصد أن يُذبح الولد، إنّما القصد أن يمتثل الأمر، إنّما القصد أن يعرف أنّه مهما طلب منه فإنّه منقذ، ولذلك جاء الفرج من السماء: ﴿أَنْ يَا إِبْرَاهِيمَ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٤-١٠٧﴾ [الصفات: ١٠٤-١٠٧].

لذلك شرعت الأضحية في هذا العيد .. عيد الأضحى، وقد روى: «ضحوا
فإنها سنة أبيكم إبراهيم»^(١).

كلما ضحينا تذكرنا هذا الحدث العظيم .. هذا الموقف الجليل، من الخليل
وابنه إسماعيل، تذكرنا كيف يرقى الإنسان إلى أن يضحى بأعز شيء عليه، وأحب
شيء إليه، وآثر شيء لديه، ما دام ذلك في سبيل الله . ضحى إبراهيم بولده، وضحى
ولده بنفسه، كل ذلك لله .

ما أجدرنا - أيها الإخوة المسلمون - ونحن في هذا العيد أن نتعلم من
إبراهيم وإسماعيل درس التضحية .. درس البذل لله .. درس الصبر لله .. درس
الطاعة لله ﴿ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾
[الصفات: ١٠٢].

إنّ الذى أذلّ هذه الأمة، ونكّس رأسها، وأرغم أنفها، وجعلها هيّنة عند
أعدائها هو: عدم البذل، عدم التضحية .

إنّ هذه الأمة أصابها الوهن كما حذرنا النبي ﷺ: « .. ولينزعن الله من
صدر عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله فى قلوبكم الوهن، فقال قائل: يا
رسول الله وما الوهن؟ قال: حبّ الدنيا وكرهية الموت»^(٢). هذا هو الوهن، هذا
سرّ الوهن وسرّ الضعف: - حبّ الدنيا (تعلّق الناس بالدنيا .. بالمصالح الشخصية
والمادية) وكرهية الموت (تشبث الناس بالحياة ولو كانت ذليلة، وهو سبب
الجبين).

(١) رواه ابن ماجه من حديث زيد بن أرقم (٣١٢٧) بلفظ « ... ما هذه الاضاحى قال:
سنة أبيكم إبراهيم» .

فى الزوائد: فى إسناده أبو داود واسمه نفيح بن الحارث وهو متروك واتهم بوضع الحديث .
(٢) أخرجه أبو داود فى الملاحم من حديث ثوبان رضى الله عنه، وفيه راو مجهول وباقي
رجالهم ثقات، لكن رواه أحمد فى المسند بنحوه من طريق آخر وسنده قوى، فصحّ به . انظر (شرح
السنة للبعغوى بتحقيق شعيب الأرنؤوط: ١٥ . ١٦ برقم ٤٢٢٤) وأوله: (يوشك الأمم لا أن
تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها . قال قائل: يا رسول الله ومن قلة يومئذ؟ قال: لا بل
أنتم كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل ...» .

إنما فتح الصحابة الفتوح، ودانت لهم البلدان، ودخل الناس في دين الله أفواجا، لأنهم هانت عليهم الدنيا، ولأنهم ما كانوا يباليون أوقعوا على الموت أم وقع الموت عليهم، كما قال أبو بكر لخالد: يا خالد احرص على الموت توهب لك الحياة.

حرصوا على الموت فوهبوا الحياة.

كان خالد بن الوليد في حروبه مع فارس والروم، يدعوهم إلى أن يُسلموا فيسلموا، ويكتب الرسائل إلى قادتهم ويختمها بقوله: «والأ – أى إذا رفضتم – غزوتكم يقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة».

فإذا أصبحنا نحن نحب الحياة ونحرص على الحياة كما وصف الله اليهود من قبل: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِ﴾ [البقرة: ٦٩] أى حياة عزيزة أو ذليلة، كريمة أو مهينة. كان اليهود أحرص الناس على حياة، أصبحنا نحن وقد ورثنا أخلاق اليهود قديماً.

فمما يؤسف له أن ما وصف الله به اليهود قديماً أصبح الكثيرون منّا يوصفون به. وُصف اليهود بالحرص على حياة أى حياة، وُصفوا بأنهم بخلاء بالمال، وُصفوا بالجبن ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قَرْيٍ مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ...﴾ [الحشر: ١٤] نحن للأسف أصبحنا بما أُصيب به اليهود.

ما الذى جرى للأمة؟ هل تغيرت طبيعة الأمة؟

وصف الله اليهود بأنهم ﴿بِأَسْهُمٍ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ [الحشر: ١٤]، ونحن نرى أمتنا اليوم بأسها بينها شديد، يجفوا بعضها بعضاً، ويعادى بعضها بعضاً، بل يقاتل بعضها بعضاً، كما رأينا فى حرب العراق وإيران، ثم حرب العراق والكويت، أو العراق والخليج، وهو ما مزق الأمة إلى اليوم فلم يلتئم لها شمل. ولم تعقد لها قمة شاملة. وقد دعا بعض رجالات العرب – بعد العدوان على لبنان – إلى عقد قمة عربية من أجل لبنان، ولو قمة مصغرة،

فما استجاب لذلك أحد، لأن الأمة أصبحت يضرب بعضها وجوه بعض، لا يجتمع شملها، ولذلك طمع فيها أعداؤها.

لابدّ - أيها الإخوة - أن نحاول أن نجمع شمل هذه الأمة.. أن نلمّ شتاتها، ولا يجمعها شيء إلا الإسلام. الإسلام هو الذى يوحد الصفوف، هو الذى يجمع الشتيت، هو الذى يوحد المتفرق. أمّا إذا سرنا وراء غير الإسلام، فإننا سنتفرّق شذر مذر، سنتفرّق إلى يمين ويسار، واليمين درجات واليسار درجات. هناك يمين اليمين ووسط اليمين، ويسار اليمين، وهناك يسار اليسار ووسط اليسار ويمين اليسار، وهناك من قبلته كذا ومن ورائه لكذا، سنتفرّق الأمة، ولا يجمعها شيء إلا الإسلام ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

الأمة بخير، لقد ذهبت إلى أماكن شتى وأقطار شتى، ووجدت الأمة بخير. الأمة فيها الخير، كامن فى أعماقها، نرى ذلك فى هذه التجمّعات على الإسلام، نرى ذلك فى المليونين (بل أكثر من المليونين) من الحجاج، نرى ذلك فى مواسم الحج والعمرة التى تمتلئ بالملايين، نرى ذلك فى المساجد التى تمتلئ بالمصلين، نرى ذلك فى هذه الصحوة الإسلامية التى حرّكت العقول والقلوب والعزائم. ولكن الأمة تحتاج إلى قيادة، تحتاج إلى من يقودها باسم الله فيفجر طاقاتها المكنونة، وهى طاقات هائلة لا يفجرها إلا الإيمان.

هذه الأمة لا تقاد بالقومية، ولا بالاشتراكية، ولا بالديمقراطية، ولا بالثورية، ولا بأى شيء من هذا. إنّما تقاد حينما ترفع المصحف أمامها، وتعلن عليها: (لا إله إلا الله والله أكبر). حينما تقول: يا رياح الجنّة هبّى، ويا كتائب الله سيرى، تسير الأمة وراءك.

الأمة لا يمكن أن يجمعها شيء أو يحركها شيء إلا الإسلام، ولكن أعداء الأمة يعرفون ذلك، ولذلك يسعون إلى تفريقها (فرق تسد) لابدّ من تفريق هذه الأمة بأى وسيلة، لابدّ أن لا يكون لهذه الأمة شمل ملتئم!

فى بعض البلاد يثيرون مسألة الأقليات غير المسلمة: الأقباط فى مصر،
النصارى فى لبنان، وهكذا.

إذا لم توجد أقلية غير مسلمة، يثيرون المذهبية الإسلامية والطائفية
الإسلامية: سنة وشيعة.

إذا لم يوجد سنة وشيعة، يثيرون مسألة العرقية: عرب وبربر أو عرب
وأكراد.

إذا لم يوجد حتى هذه العرقية يقولون: سلفى وصوفى، مذهبى ولا
مذهبى، وهكذا، لابد أن يحاولوا أن يوجدوا شيئاً يفرق الأمة، ونحن نريد أن
نجمع الأمة بكل طوائفها وبكل فصائلها.

ينبغى لأبناء الصحوة الإسلامية أن يدركوا هذه الحقيقة: أن أعداءنا يريدون
أن يفرقونا، وأن يمزقونا شراً ممزق، وألا يرتفع لنا علم، وألا نجتمع تحت راية. ولا بد
أن ندرك كيدهم، وأن نرد كيدهم فى نحورهم، وأن نعيد سهامهم المسمومة إلى
صدورهم.

ينبغى أن نكون أكثر وعياً لما يكيد لنا أعداء الإسلام.

إن الإسلام – أيها الإخوة – فى هذه الآونة مُحاصر من كل مكان، يُضرب
الإسلام وللأسف بأيدي أبنائه.. بأيدي ولاته وحكامه. خوفوا الحكام من
الشعوب.. من الصحوة الإسلامية.. من الدعوة الإسلامية، فأصبح هناك هوة
واسعة وفجوة عميقة بين الحكام والمحكوميين، ولا بد لنا أن نوعى الناس أن الجميع
فى خطر إذا لم يتحدوا على الإسلام، إذا لم يستقيموا على كتاب الله وعلى سنة
رسول الله ﷺ.

لا مخلص لنا – أيها الإخوة – إلا بالإسلام، نقول ما قاله ابن الخطّاب: نحن
كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام، ومهما نطلب العزّ بغيره أذلنا الله.

لابد لنا أن نستمسك بهذا الدين، ونضحى فى سبيله، ونبذل من أجله

النفس والنفيس، والغالى والرخيص، نقدّم أنفسنا ونقدّم أولادنا، كما قدمت
الخنساء أولادها الأربعة فى معركة القادسية، وأوصتهم أن يُقدّموا ولا يحجموا،
وأن يثبتوا ولا يترددوا، حتى قتلوا كلهم فى المعركة، ولما بلغها نعيهم لم تلتطم
خدّاً، ولم تشقّ جيباً، ولكن قالت: الحمد لله الذى شرفنى باستشهادهم،
وجعلهم شفعا لى يوم القيامة!!

يا أيها الإخوة:

ما أحوجنا إلى عيد تعلقو فيه كلمة الإسلام، وترتفع فيه راية القرآن.
ما أحوجنا إلى عيد بلا مشكلات ولا أحزان ولا دموع.

نحاول أن نجد عيداً من هذا النوع بحيث نبتسم ونضحك من قلوبنا
ونفرح الفرحة الحقيقية، فلا نكاد نجد هذا العيد.

أبو الطيب المتنبى قال يوماً فى عيد من الأعياد:

عيد بأية حال عدت يا عيد بما مضى أم لأمر فيك تجديد

أما الأحبة فالبيداء دونهم فليت دونك بيداً دونها بيد

استوحش الشاعر من العيد لفراق أحبته، لأنّ أحبته كانوا بعيدين عنه. ماذا
يقول المتنبى لو رأى أعيادنا هذه، وأمتنا تقاسى ما تقاسى، فى فلسطين ولبنان،
فى البوسنة والشيشان، فى كشمير والفلبين، فى كثير من بلاد الإسلام. بعض ما
تعانيه من صنع أعدائها، وبعض ما تعانيه من صنع أيديها، كما يحدث فى
أفغانستان، وكما يحدث فى الصومال، وكما يحدث فى كثير من بلاد
الإسلام.

ما أحوجنا إلى عيد نبتسم فيه، ونشعر بالفرحة الكبرى، ونقول: هذا هو
العيد الأكبر ﴿ويومئذ يفرح المؤمنون﴾ بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز
الرحيم ﴿وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾

[الروم ٤-٦].

أقول قولى هذا، وأستغفر الله لى ولكم، فاستغفروه إنّه هو الغفور الرحيم،
وادعوه يستجب لكم.

● الخطبة الثانية :

الحمد لله ﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [غافر: ٣] . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك ، يسبح له ما فى السماوات وما فى الأرض، له الملك وله الحمد وهو على كلِّ شئ قدير، وأشهد أن سيدنا وإمامنا، وأسوتنا وحبیبنا محمداً عبد الله ورسوله، البشير النذير، والسراج المنير، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه، ومن دعا بدعوته، واهتدى بسنته، وجاهد جهاده إلى يوم الدين .

أما بعد فيا أيها المسلمون :

فى هذا اليوم الكريم لا يسعنا إلا أن نمدَّ أيدينا إلى الله تبارك وتعالى، نسأله أن ينصر أمتنا على أعدائها، وأن ينصر ديننا على أديان الشرك والكفر .

اللهم انصر الإسلام وأعز المسلمين . اللهم اجعل كلمة الإسلام هى العليا، واجعل كلمة أعداء الإسلام هى السفلى .

اللهم انصرنا على اليهود الغادرين ، وانصرنا على الصرييين الحاقدين وانصرنا على الوثنيين المتعصبين، وانصرنا على الروس الجاحدين، وانصرنا على جميع أعدائك أعداء الدين، اللهم ردّ عنا كيدهم، وقلّ حدّهم، وأذل دولتهم، وأنزل عليهم بأسك الذى لا يردّ عن القوم المجرمين .

اللهم انصر إخوتنا المجاهدين فى سبيلك حيثما كانوا . اللهم أيدهم بروح من عندك، واحرسهم بعينك التى لا تنام، واكلاهم فى كنفك الذى لا يضام .

اللهم إننا نسألك أن تكرمنا ولا تهيننا، اللهم أكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وزدنا ولا تنقصنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وارض عنا وأرضنا .

اللهم اجعل يومنا خيراً من أمسنا، واجعل غدنا خيراً من يومنا، وأحسن عاقبتنا فى الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة .

اللهمّ ولّ أمورنا خيارنا، ولا تولّ أمورنا شرارنا، وارفع مقتك وغضبك عنا، ولا تهلكنا بما فعل السفهاء منا، ولا تسلّط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا .

اللهمّ اجعل هذا البلد آمناً مطمئناً، سخاء رخاء، وسائر بلاد المسلمين .

اللهم اغفر للمسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات، الأحياء منهم والأَمْوات، إنّك سميع قريب مجيب الدعوات يا ربّ العالمين عباد الله : يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦] .

اللهم صلّ وسلّم وبارك على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان .
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

* * *

١٨ - عيد بأية حال عدت يا عيد

• الخطبة الأولى:

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون:

مرّت علينا أيّام العيد، وهنّا بعضنا بعضاً: عيدكم مبارك، وعساكم من عواده، وكلّ عام وأنتم بخير. وذبح الناس الذبائح، وأكلوا حتى امتلأت بطونهم، وجمعوا على موآئدهم ما لذّ وطاب من الطعام والشراب.

ومن قبل هذا العيد مرّ عيد آخر، قبل عيد الأضحى مرّ عيد الفطر، وقبل هذا وذاك مرّت أعياد وأعياد.

ولكن العيد الحقيقي الذي ينبغي أن تبتسم له الشفاعة، وأن تفرح به القلوب، وأن تنشرح به الصدور، وأن تعلن الأمة به الفرحة الكبرى: هو العيد الذي ينتصر فيه المسلمون انتصاراً حقيقياً، حين تعلق كلمة الإيمان، حين ترتفع راية القرآن، حين تُحكّم شريعة الإسلام، حينما تتحرّر أرض الإسلام، حينما يصبح المسلمون سادة أنفسهم، حينما يصبح أمرهم بأيديهم ولا يكونون كما قال الشاعر:

ويُقضى الأمر حين تغيب تيمٌ ولا يُستأذنون وهم شهود!

العيد الذي تنتظره هو العيد الذي يصبح المسلمون فيه أحراراً سادة، هم الذين يُملون القرار، وهم الذين يتخذونه من عند أنفسهم.

حين يكون المسلمون قادرين على الدفاع عن حرّياتهم، على الذود عن حماهم، لا يُهتك لهم عرض، لا تُنتهك حرمة، لا يُسفك دم، لا يهدّم مسجد، لا يُدمرّ منزل، حينما يأتي هذا اليوم يحقّ لنا أن نقول: عيدكم مبارك، وكلّ عام وأنتم بخير.

أمّا أعيادنا اليوم فليست أعياداً، إنها أعياد لا طعم لها، لا معنى لها.

كيف نعيّد؟ كيف نفرح؟ كيف نضحك؟ كيف يمتلئ التلفزيون بتلك

البرامج المفرحة أو غير المفرحة، النَّافع وغير النَّافع منها، وإخوتنا المسلمون هنا وهناك يُذَبِّحون .. يُقَتِّلون . يُبادون .. يُنتهكون؟ قولوا لى بالله كيف نفرح؟
كيف نفرح والمسجد الأقصى أسير فى أيدى يهود، يتحكّمون فيه، ويفعلون أفاعيلهم ليهدموه، وقيموا معبدهم على أنقاضه؟
كيف نفرح وأرض النبوات تُنتهك فيها الحرمات، من اليهود أحرص الناس على حياة؟

كيف نفرح وإخوتنا فى البوسنة والهرسك إلى اليوم يذوقون العذاب، ويشربون الكأس المرّة، على أيدى أولئك الحاقدين الصليبيين المتوحشين؟
كيف نفرح وإخوتنا فى جامو وكشمير يلقون من الوثنية المتعصبة البغيضة ما يلقون؟

كيف نفرح ولنا إخوة فى كلّ مكان يشكون الاضطهاد، ويشكون مرارة الأذى، ويتجرّعون الصاب والعلقم؟

كيف لأمتنا أن تفرح بالعيد وهذا حالنا؟

من قديم قال أبو الطيب المتنبي :

عيدٌ بأيّة حال عدت يا عيدُ بما مضى أم لأمر فيك تجديد
أما الأحبة فالبيداء دونهم فليت دونك بيداً دونها بيد

كان أبو الطيب يشكو الغربية .. الغربية عن الأهل والوطن، يشكو فراق الأحبة، فليتنا نشكو مثل هذا.

إننا نشكو ما هو أوجع .. ما هو أشدّ إيلاماً، نشكو مآسى حلّت بالأمة، فأخرت مسيرتها، ومزقت صفوفها، وأصبح أعداؤها يتحكّمون فيها ولا تستطيع أن تردّ لهم أمراً.

ماذا نصنع أمام هذه المصائب والكوارث والمآسى، ونحن عاجزون مشلولو الأيدي أمام ما يحدث لنا وإخوتنا هنا وهناك؟

نشرات الأخبار معظمها مآسى المسلمين، حتى قال لى بعض الإخوة: أكاد أغلق التلفزيون كلما جاءت نشرة الأخبار، لأن الأخبار التى تتصدرها مآسى إسلامية .

أحزان وراء أحزان، وهموم وراء هموم، هذا ما نراه فى كل يوم . المصائب تصابحنا وتماسينا، وتراوحنا وتغاديننا . لا نستطيع أن نغلق أعيننا، ولا نستطيع أن نصمّ أسمعنا، أمام هذا الصراخ . لا يستطيع الإنسان أمام هذه المشاهد، أن يغلق بصره وسمعه .

ماذا نصنع ؟

الأمّة التى بوأها الله مكانة الشهادة على الناس، والتى جعلها خير أمة أخرجت للناس، أمة محمد، أمة القرآن، أمة الإسلام، أمة الخلود، الأمة التى بلغ تعدادها ملياراً ونحو ربع المليار من البشر (ألف مليون ومائتا مليون من الناس)، كثرة كغشاء السيل .

مئات الملايين، ولكنها لا تستطيع أن تصنع شيئاً .

ما أكثر الناس، لا، بل ما أقلهم الله يعلم أتى لم أقل فندا

إنى لافتح عيني حين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحدا

مئات الملايين، ولكنها لا تغنى عند الخطر، لا تفعل شيئاً يذكر .

ما الذى جرى لهذه الأمة؟ ما الذى جرى لها حتى يحدث لها ما حدث؟ عندها وسائل القوة، عندها مقومات السيادة والريادة: عندها القدرة البشرية . عندها القدرة الاقتصادية، فهى تملك معظم منابع النفط، وتملك من المعادن، وتملك من الرقعة الزراعية . عندها الموارد الحضارية، عندها القوة الروحية لأنها تملك أعظم رسالة البشر، رسالة الإسلام الخالدة .

عندها مؤهلات السيادة، ولكنها لم تشكر نعمة الله على هذا، لم تستفد من هذه الطاقات وهذه القوى، تركت الإسلام، تركت مصدر عزّها ومجدها، فتحكّم فيها غيرها .

لا قيام لهذه الأمة .. لا عزّ لها .. لا انتصار لها .. لا وحدة لها .. لا سيادة لها، إلا بالاستمساك بعرى الإسلام . حينما تتمسك بالإسلام سيعزّها الله، إذا نصرت الله نصرها الله، إذا أعزّت دين الله أعزّها الله، إذا كانت مع الله كان الله معها: ﴿ .. إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ .. ﴾ [محمد: ٧]، ﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٠] .

ما الذى جرى لأمتنا حتى حدث لها ما حدث، ومرّت عليها الأعياد وحالها هكذا؟ كيف نفرح بالعيد؟ كيف نضحك للعيد وهذه حال أمتنا؟

نحاول أن نرسم البسمة على الشفاه، نحاول أن نرسم الإشراقة على الوجوه، نحاول أن نتظاهر بالفرح والسرور، ولكن هناك جراح عميقة غائرة فى سويداء قلوبنا لا نستطيع أن ننساها، وإخوتنا فى كلّ مكان يعانون ممّا نعرفه ونقرأه ونسمعه ونشاهده .

مشكلتنا فى هذا العصر أنّ الأحداث أماننا، المسلمون قديماً ضاعت منهم الأندلس وحدث للأندلسيين ما حدث، ولكن ما كان الناس يرون هذا ولا يسمعون . كانوا يسمعون بعد أن يقع بأشهر أو بسنين، أمّا نحن الآن فنشاهد الأحداث لحظة بلحظة، فلا عذر لنا أمام هذه المآسى التى نشهدها ونسمعها ونعايشها .

إخوتنا فى البوسنة حديث العالم كلّه الآن، صراع بين الوحشية الغادرة .. بين الجيش المسلّح بأحدث الأسلحة وبين عُزل ضعاف، صراع بين الذئاب والحملان، صراع بين الضفدعة والثعبان، صراع بين اللحم والسكين، لا تكافؤ، لا تقارب فى القوى .

النظام العالمى الجديد، مجلس الأمن، هيئة الأمم المتحدة، ماذا صنعوا؟ حظروا على المسلمين أن تُرسل إليهم الأسلحة، وإلا أُتيحَت الفرصة للتساوى فى القتل ! هكذا قال أحد السياسيين البريطانيين ! أى لا ينبغى أن يحدث التساوى

فى هذا، يُمكن طرف من قتل الطرف الآخر حتى لا يستمر القتال، يُتاح لطرف أن يقتل وعلى الطرف الآخر أن يستكين ويصبر !!

ماذا فعل النظام العالمى الجديد المزعوم؟ ماذا فعلت الهيئات الدولية؟ لم تصنع شيئاً إلا الكلام، يُقال: سنفعل وسنفعل، وما فعلوا ولن يفعلوا إلا بعد أن تذهب أراضى المسلمين وديارهم ويُمزقوا شرّ ممزق، ولا يبقى لهم إلا شىء لا قيمة له. هنالك يدعون إلى إنهاء القضية والمصالحة! أى مصالحة؟! على أى شىء؟!!

ماذا فعل المؤتمر الإسلامى الذى اجتمع من قبل فى جدة. واجتمع فى إسلام آباد، وسيجتمع من بعد فى مكان كذا؟ ماذا صنع هؤلاء؟ كلام فى كلام. وكما قال الشاعر:

إنّ الفى قديفة من كلام لا تساوى قديفة من حديد

حتى كلامنا إذا تكلمنا فهو كلام خافت، أشبه بالهمس الذى ينيب اليقظان لا بالصراخ الذى يوقظ النائم، ويحرك الساكن، صوت خافت، صوت ضعيف.

كان من أوصاف عمر رضى الله عنه أنه كان إذا تكلم أسمع. رأت إحدى الصحابيات بعض الشباب يمشون متماوتين، فسألت من هؤلاء؟ قالوا لها: هؤلاء نساك عباد، فقالت: كان عمر ناسكاً، ولكنه كان إذا مشى أسرع، وإذا تكلم أسمع، وإذا أطعم أشبع، وإذا ضرب أوجع، وهذا هو الناسك حقاً. هذه مظاهر القوة، أما نحن اليوم فنتكلم فلا نسمع، ونمشى فلا نُسرع، ونطعم فلا نشبع، ونضرب فلا نوجع. هذه حال أمتنا.

انظروا ماذا تفعل إسرائيل. نحن نركض وراءها، نلهث من خلفها، نتنازل عن شىء بعد شىء، وهى كأنما تخرج لنا لسانها، تسخر منا، تستهزى بنا. كلما أسرفنا فى التذلل، أسرفت فى التمتع والتدلل، كلما بالغنا فى الانحناء، بالغت فى الإباء، كلما زدنا تنازلاً زادت تعالياً، وهكذا.

أبناء القردة والخنازير الذين غضب الله عليهم فى كتبه، أصبحوا يسخرون منا. صاحب الدار يركض وراء اللص، يرجوه أن يدع له حجرة من بيته.. من داره

الكبيرة التي اغتصبها، واللص لا يريد أن يترك له حتى هذه الحجرة ! هم يقولون للفلسطينيين الآن ! اذهبوا إلى الأردن، ليس لكم مكان في فلسطين .

وهذه المفاوضات التي يركضون وراءها تضييع للأوقات، ليس هناك عمل مُجدٍ إلا الجهاد في سبيل الله، ما غزى قوم في عقر دارهم إلا ذلوا، ما أخذ بالقوة لا يسترد إلا بالقوة، هذا ما قاله الشاعر العربي من قديم بحكم الفطرة والأنفة :

وكنت إذا قومٌ غزوني غزوتهم فهل أنا في ذا يالهمذان ظالمٌ ؟
متى تحمل القلب الذكيّ وصارماً وأنفاً حمياً تجتنبك المراغم
تُرى ألم يعد لنا قلوب ذكيّة، أو نفوس أبيّة، أو أنوف حميّة، أو صوارم
عربية، ندافع بها عن أنفسنا، حتى تجتنبنا المراغم، وحتى نتحرر من المظالم ؟؟
ما الذي حدث لنا؟ كنّا نغزو فأصبحنا نُغزى، كنّا نقود فأصبحنا نُقاد، كنّا
سادة العالم فأصبحنا في ذيل القافلة .

لا بدّ من رجعة إلى الله تبارك وتعالى .

إنّ إسرائيل تريد أن تصبح هي سيّدة المنطقة، وهي الآن تقول : أنا التي أحمى العالم ! ومّمّ تحميه؟ من الإسلام . ثمّ تسمّى هذا الإسلام شيئاً اخترعته هذه الأيام، وهو اسم : الأصوليّة ! بدل أن يقولوا (الإسلام) بصراحة يقولوا : نحن نحمل العالم من الأصوليّة !

ما الأصوليّة؟ الأصوليّة هي الدعوة إلى كتاب الله وسنة رسوله .. إلى تحكيم الشريعة، عودة هذه الأمة إلى جذورها، إلى ذاتيّتها، أن لا تخضع لغيرها، أن لا ترضى بغير كتاب الله منهاجا، وبغير رسول الله ﷺ إماماً .

تحدث حوادث إرهاب في أمكنة من بلاد المسلمين ونحن لا نقرّها، فيلصقونها بالإسلام، وينسبونّها إلى (الأصوليين) ليبغضوا الناس فيهم، فيسمّون الإسلام : (الأصوليّة)، أو يسمّونه (تطرفاً)، أو (تشدّداً)، أو (إرهاباً) ! والإسلام لا يقرب أن يقتل إنسان بريء بغير حق، ولكن هذا يحدث في كلّ أنحاء العالم، فلماذا يركّز على حوادث تحدث في بلاد المسلمين وحدها، ويتخذ منها ذريعة لضرب الإسلام، وضرب التدين؟

وأصبح يكتب في صحف سيّارة : إنّ التدين هو مصدر هذا الخطر كلّه!

النديين مادام موجوداً فهو الذى يفرز التطرف، ويفرز الأصوليين ! لا بدّ إذن من سياسة قائمة على فلسفة سموها: (تجفيف منابع). بمعنى: أنه ينبغي فى الإعلام وفى التعليم وفى الثقافة أن تُحذف الأشياء التى من شأنها أن تنشئ العقليّة المسلمة، والنفسية المسلمة، والشخصية المسلمة.

وهذا ما فعلوه فى عدد من البلدان^(١)، حذفوا من مناهج التعليم كلّ ما يثير حمية المسلم.. كلّ ما يخلق فيه الاعتزاز بدينه.. كلّ ما يبعث فيه روح الجهاد.. كلّ ما يثير فيه الغيرة على دينه وعلى أمته.

هذا ما يحدث فى بلاد كثيرة. يغرسون فى الطفل منذ نعومة أظفاره ما يسمّى (نسبية الحقائق)، أى: أن الحقائق ليست مطلقة، إذا كنّا نحن ندعو إلى التوحيد ونؤمن بالتوحيد، فهناك من يؤمن بالتثليث، وهناك من يرى أن الإله يتجلّى فى شجرة أو بقرة أو نهر أو صنم، هناك وثنية، ومعظم العالم وثنيون، هؤلاء بشر مثلنا من حقهم أن نحترمهم وأن نقرّ بدياناتهم !!

إذا كنّا نؤمن برسالة محمد فهناك من لا يؤمن بها، هناك من يؤمنون برسل آخرين، وهناك من لا يؤمنون برسالات سماوية. إذا كنّا نؤمن بالآخرة وأنّ هناك جنة ونارا، فهناك أناس يقولون بتناسخ الأرواح، وهناك آخرون يقولون: إنّه لا جنة ولا نار!!

هذه هى (النسبية) التى يتحدثون عنها، سوفسطائية جديدة.
هذا ما يجرى فى بعض البلدان، وتحاول بلاد أخرى أن تقلّدهم.

(تجفيف منابع) هو الخظر الذى نراه الآن فى كلّ مكان.
لقد قرأت فى إحدى الصحف – فى صحيفة يومية سيّارة فى دولة خليجية – أشياء تُذهل الإنسان، لا يكاد الإنسان يتصوّرها، كيف يحدث هذا فى بلد عربى مسلم، ولا تهيج الدنيا؟ ولا يُقذف هذا الكاتب بالحجارة من الأطفال فى الشوارع؟ كيف يحدث أن يكتب إنسان يدين التاريخ الإسلامى كلّهُ.. يدين الفتح الإسلامى كلّهُ؟ ويقول: الروم كانوا عادلين والمسلمون فى حربهم للروم كانوا ظالمين! المعتصم الذى نتحدّث عنه ونقول (وامعتصماه)، كان رجلاً ظالماً،

(١) مثل تركيا وتونس بصراحة، وفى بلاد أخرى بخبث وتدرج. (القرضاوى).

ذهب إلى أناس فقتلهم في بلادهم من أجل امرأة! والمسلمون حينما ذهبوا إلى الأندلس كانوا غزاة لقوم مسلمين، ولذلك حُقّ لأهل البلاد أن يطردوهم، وأن يستردّوا بلادهم من هؤلاء الغزاة! ويقول: إنّ (إسرائيل) إسم معروف في كتبنا وفي قرآنا وفي الكتب المقدّسة، لم يكن للعرب حقّ فيها، هي حقّ بنى إسرائيل، وهذا وطنهم وقد استردّوه، فليس لفئة أن تدّعى أنّها صاحبة الحقّ!
هذا يُكتب في صحفنا، هذا ما لم يقله اليهود، وما لم يقله (هرتزل) ولا (ابن جريون)، هؤلاء لم يقولوا إنّهم أصحاب الحقّ وحدهم، بل قالوا: نقسّم الأرض بيننا، أمّا هذا فيقول: لا، ليس لنا - نحن أصحاب الأرض كما نزعم - حقّ في هذا!!

جهل هذا الشخص المتعالم أنّ الروم كانوا مستعمرين لبلاد الشام ومصر وشمال أفريقيا، وأنّ المسلمين كانوا محرّرين لهذه الشعوب، وأنّ الأندلسيين هم الذين استعانوا بالمسلمين لينقذوهم، وأنّ بنى إسرائيل لم تقم دولتهم في فلسطين أكبر من أربعمئة (٤٠٠) سنة، وأنّهم حينما دخلوا فلسطين لم تكن فارغة، وحين خرجوا منها لم تكن خالية، فقد كان فيها أهلها، أهل فلسطين. وهو يدافع عن الماسونية ويقول: افتحوا المحافل الماسونية، الماسونية، هيئة خيريّة إنسانيّة!!

الماسونية - أيها الإخوة - أداة من أدوات اليهوديّة العالميّة، ومن أدوات الصهيونية، للتأثير على العالم وسياسته.

أىّ عيد هذا الذى يُقال فيه هذا الكلام ويمر بسهولة؟

أىّ عيد هذا الذى يحدث فيه ما يحدث لأمتنا الكبرى، من المحيط إلى المحيط، أمة الألف وثلاث الألف من الملايين؟

منذ نحو ستين سنة كتب أحد الشعراء^(١) فى أحد الأعياد قصيدة، يبكى فيها حال المسلمين، ومما قاله فى قصيدته:

قالوا: عجبنا ما لشعرك باكياً فى العيد، ما هذا بشأن معيّد؟

ما حيلة العصفور قصّوا ريشه ورموه فى قفص وقالوا: غرّد!؟

(١) هو الشاعر المصرى الكبير: محمود غنيم، والقصيدة نشرت فى مجلة (الرسالة).

كيف يغرد العصفور إذا قصّ جناحه ورتف ريشه ووضع في القفص؟ هل يستطيع أن يغرد؟ إنه ينوح ولا يغرد.

وهذه هي حالنا ما لم نصطح على الله تبارك وتعالى، ما لم نقرع باب الله بالتوبة، ما لم نرجع إلى أنفسنا، ما لم نقل ما قال أبونا آدم وأمنا حواء: ﴿... رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

ليس معنى هذا - أيها الإخوة - أنه ليس هناك بصيص من أمل، وأن الصورة سوداء من كل جوانبها. إننا حين نتألم، فهذا دليل حياتنا. تكالب الأعداء علينا يدل على أننا أحياء، فالأموات لا يعاديهم أحد.

المبشرات كثيرة أيها الإخوة. فبجوار هذا هناك صور مشرقة:

المساجد ممتلئة بالمصلين والحمد لله، موسم الحج عامر بالحجاج، اثنان من الملايين حجّوا هذا العام. الذين يقرأون الكتاب الإسلامي بالملايين، المنادون بتطبيق الشريعة جماهير غفيرة في كل مكان، صوت الإسلام لا زال مرتفعا.

الإخوة في البوسنة والهرسك - رغم ضعفهم ووهن حالهم، وعدم وجود سلاح في أيديهم - قاوموا ولا زالوا يقاومون، كانوا يظنون أن (سراييفو) ستسقط بعد ثلاثة أسابيع، فمرّ عليها سنة، ومرّ عليها بعد السنة شهر وشهر، وهي صامدة.

قالت إسرائيل: إن الانتفاضة ستنتهي بعد أسابيع، وإن ثورة المساجد ستنتفيء بعد أيام أو أشهر على الأكثر. ولكن الجذوة لم تنطفئ، ظلّ أطفال الحجارة يكبرون ويكبرون، إلى أن أصبح الأشبال أسوداً، وأصبحوا يخيفون إسرائيل في كل مكان.

رغم تكسير العظام، ورغم إزهاق الأرواح، ورغم سفك الدماء، ورغم الاعتقال والسجون، لازال أشبال الحجارة يعملون.

وإسرائيل تحاول أن تعوّض عن هذا بحركتها في كلّ مكان، في المنطقة وفي غير المنطقة، حتى ذهبت إلى الهند وقالت لهم: نحن معكم ضد الإسلاميين..
ضد الأصولية الإسلامية. واجتمع الاثنان كما قال الله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ
النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا...﴾ [المائدة: ٨٢].

لازال المجاهدون يعملون، وإخوتنا في كشمسر لازالوا يجاهدون.

هناك إذن ولا شك صور طيبة.

ذهب أحد الصحفيين الكنديين إلى البوسنة وإلى مدينة (سيفرتشا)،
وعايش الإخوة هناك، فأدهشه صلاتهم وقوتهم واستمساكهم بدينهم، رغم
حدائث رجوعهم إلى الدين، فقد كانوا تحت حكم الشيوعية.

أعجبه هؤلاء فعاش بينهم، ودخل في دينهم، وتزوج منهم، وأصبح واحداً
منهم. ثم أراد أن يودّعهم وقال: إنني مشتاق إلى أن أذهب إلى فلسطين، وأريد
أن أزور المبعدين في (مرج الزهور)، هؤلاء الصامدين الذين لم يركعوا أمام ضغط
اليهود، لم يحنوا رؤوسهم، لم يطأطئوا ظهورهم أمام وعد أو وعيد.. أمام إغراء
أو تهديد، رفضوا أن يعودوا إلا جميعاً، أو يبقوا في هذه الأرض حتى تكون لهم
مقابر.

أراد أن يذهب إلى هؤلاء فقال له الإخوة في البوسنة: نريد أن نبعث لك
شيئاً لإخواننا.. هدية.. مساعدة، فماذا نبعث؟

جمعوا ما معهم فما استطاعوا أن يجمعوا إلا اثني عشر دولاراً. قالوا: خذ
هذه الدولارات الاثني عشر وأعطها لإخواننا مساعدة وهدية منا لهم. كانت
رمزاً، ليست شيئاً عظيماً، ولكنها شيء عظيم في قيمته لا في مادته.. في كيفه
لا في كميته.

ذهب الأخ الكندي إلى أرض المبعدين في (مرج الزهور)، وبلغهم رسالة
إخوانهم، وأنهم معهم بقلوبهم، وأنهم يتمنون لو تحررت أرضهم ليأتوا إلى

فلسطين ليجاهدوا معهم . وقال لهم : إنهم لم يستطيعوا أن يجمعوا لكم إلا اثني عشر دولاراً، ويرجون أن تقبلوها منهم .

وبكى الإخوة وقالوا : الإخوة في البوسنة يهّمهم أمر إخوانهم في فلسطين، ولم يشغلهم ما هم فيه من مصائب ومآسٍ؟! هذا هو شأن المسلم، لا يُشغل بأمره الخاص عن أمر إخوانه .

ولهذا قال الإخوة : اجمعوا كل ما تستطيعون لندّ الهدية بهديّة مثلها . كان النبي عليه الصلاة والسلام يقبل الهدية ويكافئ عليها، فلنكافئ إخواننا على هديّتهم . فجمعوا كلّ ما يستطيعون جمعه، ممّا معهم وممّا حولهم، حتى جمعوا (اثني عشر ألف دولار)، وقالوا : هذه هديّتنا إلى إخواننا . هذه هي الروح الإسلاميّة أيّها الإخوة .

الإسلام بخير، مهما حدث ما حدث يستطيع المسلمون أن يفعلوا الكثير . سألتني بعض الإخوة عمّا كتبه الأستاذ (فهمي هويدي) في صحيفة (الشرق) وفي (الأهرام) وفي غيرهما : أن إنقاذ البوسنة مقدّم على فريضة الحج . قلت له : لسنا في حاجة إلى أن نوقف الفريضة، بل لو أنّ الذين يحجّون متطوّعين تبرّعوا بقيمة حجّ التطوّع، لجمعنا المليارات .

المليونان اللذان حجّوا هذا العام، في العادة لا يوجد أكثر من ثمنهم أو سبعهم يحجّون للمرة الأولى، ومعظم الحجاج دائماً ممّن حجّوا مرتين وثلاثاً وعشراً وعشرين وأربعين، أعرف أناساً حجّوا أكثر من أربعين مرّة .

هؤلاء الذين يحجّون حجّ التطوّع لو أنّهم بذلوا نفقة هذا الحجّ لله عزّ وجلّ، وأعانوا إخوانهم، لكان هذا أفضل مرّات ومرّات من حجّ التطوّع .

وفي رمضان، قالوا : كان هناك في ليلة السابع والعشرين نحو مليونين في الحرم الشريف . فلو أنّ هؤلاء دفعوا نفقة هذه العمرة - وهي عمرة تطوّع - ولو أنّ المسلمين دفعوا زكاة الفطر هذا العام لمساعدة الإخوة في البوسنة - ومعظم المسلمين في العالم يؤدّون زكاة الفطر - لاستطاعوا أن يفعلوا الكثير، وأن يجمعوا الكثير .

ولكن من الذى يقول فيسمع له؟ من ينادى المسلمين؟

كانت لنا قديماً خلافة، يستطيع الخليفة أن يقول: يا أيها المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها، ابدلوا لإخوانكم فى فلسطين، أو فى البوسنة والهرسك، فيستجيب الناس للخليفة، ويطيعون أولى الأمر منهم.

نصارى الكاثوليك لهم بابا فى الفاتيكان، والنصارى البروتستانت لهم مجلس الكنائس العالمى، والأقباط الأرثوذكس لهم بطريرك أو بابا فى مصر، وهكذا، كل جماعة لهم قيادة دينية إلا المسلمين.

كان قديماً هناك من يُسمى (شيخ الإسلام)، يستطيع أن ينادى المسلمين فيستجيب الناس له. ولكن هذا لا يوجد الآن، لأن العلماء أصبحوا فى ركاب السياسة، أفسدتهم السياسة، فلم تعد الشعوب تثق بعلمائها، ويقولون: العلماء فى كل بلد تبع للسلطة الحاكمة، ولذلك العلماء فى البلاد الاشتراكية كانوا يؤيدون الاشتراكية، وفى البلاد غير الاشتراكية يهاجمون الاشتراكية، وهكذا.

المسلمون إلى خير، ولكن الضعف فى القيادة، كما قال محب الدين الخطيب رحمه الله من قديم.

نحن فى حاجة إلى قيادة، وفى حاجة إلى وعى.. إلى عقل يفهم الإسلام، ويفهم الحياة، ويفقه سنن الله تعالى، وإلى قلب يؤمن بالإسلام ويحب الله ورسوله، وإلى إرادة تنفذ أحكام الإسلام وتلتزم به.

لقد وجدنا من الناس من ينكر إرسال قيمة الأضحية إلى الإخوة فى البلاد التى تموت من الجوع، ويقول: لا يجوز نقل الأضحية، وهناك من يقول: لا يجوز نقل زكاة المال، ومن يقول: لا يجوز نقل زكاة الفطر! هؤلاء يريدون أن يختصروا دار الإسلام فى مدينة، وأن يختصروا أمة الإسلام فى قبيلة، وأن يكرسوا هذه التجزئة التى ما أنزل الله بها من سلطان.

الإسلام أمة واحدة، والمسلمون أمة، هكذا سمّاهم الله، وليسوا أمماً. وأوطان الإسلام دار اسمها (دار الإسلام)، والمسلمون يسعى بدمتهم أديانهم،

وهم يد على من سواهم، «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يُسلمه...» (١)
أى: لا يخذله ولا يتركه يواجه المصائب وحده، فكيف يقال هذا؟
ما الذى جرى لهذه الأمة حتى وجدنا مثل هذه الأقوال العجيبة والغريبة
التي تصدر ما بين الحين والحين؟

الأمة الإسلامية أمة واحدة، وينبغي لكل واحد منها أن يهتمّ بأمر إخوانه .
اهتم بإخوانك فى شدّتهم حتى يهتموا بك فى شدّتك . لا معنى للإيمان
إذا عشت وحدك، إذا قلت: أنا وليخرب العالم .. أنا ولتنهدّ الدنيا !
أين الإسلام إذن؟ أين الأخوة؟ أين الرابطة التي تربطك بأخيك؟ ليس هناك
رابطة أقوى من العقيدة، وليس هناك عقيدة أقوى من الإسلام .
يا أيّها الإخوة :

إنّها آلام ودموع وزفرات ونفثات لا يستطيع الإنسان أن يكتمها فى نفسه،
لا بدّ أن نفّس، لا بدّ للمصدر من نفثة، لا بدّ للمكلوم من زفرة، لا بدّ للمتألّم
من دمة . فهذه دمعاتنا، وهذه نفثاتنا، ولا نملك إلا أن نقول: لا حول ولا قوّة
إلا بالله .

أقول قولى هذا، وأستغفر الله تعالى لى ولكم، فاستغفروه إنّه هو الغفور
الرحيم .

● الخطبة الثانية :

أمّا بعد، فيا أيّها الإخوة :

نسيت أن أضيف إلى كتاب الذلّ صفحة، لا بدّ أن نضيفها إلى هذا

(١) رواه البخارى، ومسلم، وأبو داود، والترمذى وقال: حديث حسن صحيح غريب من
حديث ابن عمر (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٦٤٧/٢ برقم ١٣٨٦، ٧٠٣/٢ برقم
١٥٦٩).

الكتاب الأسود، وهى صفحة أولئك الذين ذهبوا يحجّون إلى بيت المقدس . . إلى المسجد الأقصى !!

لقد سألتى مندوب صحيفة (الشرق) عن هذه المأساة، فقلت له: أى حجّ؟ هل يعرف المسلمون حجّاً غير بيت الله الحرام؟ إنّ الحجّ المفروض على هذه الأمة هو حجّ البيت من استطاع إليه سبيلاً (١).

الذين يسمّون زيارة بيت المقدس حجّاً هم النصارى، أمّا نحن فحجنا إلى بيت الله .

المسجد الأقصى عندنا أحد المساجد الثلاثة التى لا تُشدّ الرحال إلا إليها (٢) وزيارته ليست فرضاً، هى سنة . . أمر مستحب .

ولكن إنّما تُستحب زيارة المسجد الأقصى حينما نكون نحن سادته، أمّا أن نذهب إليه تحت أسنة رماح بنى صهيون، وبتأشيرة من إسرائيل، ونزوره تحت العلم الإسرائيلى الخفّاق، ويستقبلنا الإسرائيليون ليجلسونا فى أفخم الفنادق، فهذه ليست زيارة للمسجد الأقصى، هذا هو الذلّ الذى نأباه .

نحن فى زمان الذلّ العربى الإسلامى، ذللنا حتى أصبحنا نذهب إلى بيت المقدس تحت الحماية الصهيونية الإسرائيلىّة .

(١) كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾
فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً
ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين ﴿ [آل عمران: ٩٦ ، ٩٧] .

وقال ﷺ: «بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت» رواه البخارى ومسلم وغيرهما، عن غير واحد من الصحابة (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ١/١٦٧ - ١٦٨ برقم ١٨٣) .

(٢) قال ﷺ: «لا تُشدّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى» رواه أحمد والبخارى ومسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه عن أبى هريرة، ورواه أحمد والبخارى ومسلم والترمذى وابن ماجه عن أبى سعيد، ورواه ابن ماجه عن عبد الله بن عمرو بن العاص (فيض القدير للمناوى: ٦/٤٠٣ برقم ٩٨٠٢) .

ليس المطلوب منها أن نذهب إلى المسجد الأقصى لنصلّي فيه، بل المطلوب منا أن نقود الجهاد لنحرر المسجد الأقصى، وأن نصنع ما صنع صلاح الدين من قبل، حين حرّر المسجد الأقصى بعد أن ظلّ تسعين عاماً في يد الصليبيين.

نحن في حاجة إلى (صلاح) من جديد، نحن في حاجة إلى (قطز) من جديد، نحن في حاجة إلى أبطال من جديد، يرفضون الهوان، ويستعصون على الذلّ والانحناء.، ويقولون لإسرائيل ومَنْ وراء إسرائيل: لا، إمّا أن نعيش أعزّاء، وإمّا أن نموت شهداء، ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحَسَنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥٢].

ما معنى زيارة المسجد الأقصى وإسرائيل هي التي تتحكّم فيه، تُدخل من تشاء وتخرج من تشاء، وتبقى من تشاء وتطرّد من تشاء؟! أهذا الذي يسعى إليه المسلم؟! كان الملك فيصل بن عبد العزيز - رحمه الله - يتمنّى أن يطيل الله عمره حتى يصلّي في المسجد الأقصى، كانت هذه أمنية حياته، وكان صادقاً، ولذلك تأمر عليه المتآمرون حتى قتلوه. ولكنّه كان يريد أن يصلّي في المسجد الأقصى (الحرّ)، وليس المسجد الأقصى تحت صهيون.

أمّا الذين يصلّون في المسجد الأقصى في حراسة الصهاينة، فهذا أمر ميسور لكل من أراد، وقد فعلها من فعلها.

ما الذي حدث لهذه الأمة؟

هذا زمان الذلّ العربي الإسلامي، أصبحنا نترضى إسرائيل، أصبح هناك من يقول: تعالوا أيّها اليهود إلى مواطنكم القديمة، وخذوا أملاككم واستردّوا التعويضات. وأصبح هناك من يريد أن يزور إسرائيل، وأن يتقرّب من بني إسرائيل!!

أين الثوريّة؟ أين جبهة الصمود والتصدّي؟ أين الكلام الكثير الكبير؟ أين هذا كلّهُ؟

لقد ضاع وضعنا معه، ولم يبق إلا هؤلاء الفتية، فتية (حماس) وفتية (الجهاد)، فتية (ثورة المساجد)، الذين يقاتلون في سبيل الله حتى ينصرهم الله عز وجل. قد تكون المسألة أكبر منهم، وقد تكون إمكانات العدو أعظم وأخطر، ولكننا مطالبون أن نعد ما استطعنا من قوة، وأن نترك الباقي على الله عز وجل: ﴿.. كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، ﴿.. وَظَنُوا أَنَّهُمْ مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢].

اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا ديننا الذي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير، واجعل الموت راحة لنا من كل شر.

اللهم لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين ولا أقل من ذلك .

اللهم انصرنا على أعدائك أعداء الإسلام، اللهم خذهم ومن ناصرهم أخذ عزيز مقتدر .

اللهم كُنْ لَنَا وَلَا تَكُنْ عَلَيْنَا، وانصرنا ولا تنصر علينا .

اللهم اجعل هذا البلد آمناً مطمئناً سخاء رخاء وسائر بلاد المسلمين .

﴿.. رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠] .

عباد الله: يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦] . اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحبه، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .

﴿.. وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٥] .

* * *